إمام علي الشيخ
وموقعه في خارطة الشعر السوداني
(١٩٣٥-٢٠١٠م)

أ.د. محمد عثمان صالح- السودان

الشاعر إمام علي الشيخ - رحمه الله تعالى - كان رائداً من رواد الأدب الإسلامي، وعضواً فاعلاً في رابطة الأدب الإسلامي بمكتب السودان الإقليمي. وفي أخريات حياته كرمته الرابطة ضمن فعاليات مهرجان الأدب الإسلامي الثالث في الخرطوم، وكان ذلك في لقاء مشهود في قاعة الشهيد الزبير محمد صالح للمؤتمرات وبحضور رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية وعدد من أعضاء مكتب البلاد العربية[١]. فمن هو الشاعر الأديب إمام علي الشيخ؟ وما مكانته بين الأدباء العرب في السودان؟

تتناول هذه الدراسة التعريف بالشاعر إمام علي الشيخ، نشأته وعصاميته، وموهبته وتجاربه وعقيدته وفلسفته وجهاده ومكانته بين الشعراء العرب وأعماله ونشاطه وتقدير الأدباء له. ولنبدأ تعريفه بالنشأة.

◁◁ نشأته:

لا أجد أفضل من تعريف الإنسان بنفسه للآخرين. ففي علم التاريخ والسيرة الذاتية يكون الاعتماد على ما يسجله الإنسان عن نفسه أو على نفسه أكثر من أي سيرة حياة يكتبها أو يرويها عنه غيره. فقد كتب الشاعر بعضاً من مذكراته، كما أجرى معه بعض الصحفيين مقابلات[٢] أدلى فيها بمعلومات مهمة عن بداية حياته أجملها فيما يأتي:

يقول - رحمه الله تعالى - ولدت في يوم ٢٢/ يناير/١٩٣٥م بحلة شبا[٣] جوار جبل البركل، محافظة مروي، نشأت هناك وتجولت مع والدي الذي كان يعمل في الري في عدة مناطق في الجزيرة منها أبو عشر،

٢٤ القرشي، والحاج عبد الله، ولأنني كنت أصغر الموجودين من أبنائه لم يتركني خلفه قط إلى أن بلغت التاسعة من عمري، حينئذ رجع الشاعر إلى مسقط رأسه في شبا.

يقول: وكان جدي والد أمي هو العمدة جعفر مصطفى جعفر، كان رجلاً من الوجهاء يعمل في النقل بالرواحل من كريمة إلى الدبة إلى دنقلا أو إلى الخرطوم وأم درمان، وكان ختمياً قحاً رغم أن جدته بنت عم الإمام محمد أحمد المهدي[٤]. كان جدي هذا شهما كريما ينحر الذبائح، ويؤوي الضيوف، سأل الله تعالى في أواخر أيامه أن يموت بين الشفيع والبقيع (في المدينة المنورة) وشاء الله أن يخرج ويموت هناك!.

ويقول الشاعر إمام: قرأت أولاً بخلوة شيخنا عبد الرحيم ولد وراق، ومنها انتقلت إلى خلوة ولد الشريفي في البركل[٥]، ثم انتقلت إلى خلوة نظامية أكبر تدرس الحساب وهي خلوة ولد الكرسني، ثم انتقلت بعدها إلى مدرسة كريمة الأولية[٦]، ثم بعد إكمال هذه المرحلة التحقت بمدرسة سلاح الإشارة بأم درمان ومنحت مرتباً شهرياً وتعلمت فيها صيانة وتشغيل أجهزة الراديو وأجهزة الاتصال، وكانت في ذاك الزمان أهم الأجهزة لسلاح الإشارة. (فترة الأربعينات من القرن الماضي).

تعلمه:

يقول الشاعر عن تعليمه: إن خاله محجوب جعفر – رحمه الله – كان من وجهاء تجار مدينة كريمة، وكان له دور مهم في مراحل تعليمه بعد مرحلة الدراسة في الخلوة وفي المدرسة الأولية، حيث سعى لإقناع الوالدة/ شقيقته/ أن يذهب للدراسة المتوسطة في أم درمان ضمن المختارين للدراسة بمدرسة سلاح الإشارة بعد أن طلب إمام منه إقناعها لتسمح له بالسفر، وقد تم له ما أراد.

عصاميته في التعليم:

ويحكي إمام قصته مع مدرسة سلاح الإشارة، وبزوغ موهبته الشعرية فيها، فنسمع عن جهاده الطويل في الاطلاع ومدارسة القرآن الكريم واللغة العربية. ويحكي عن هذه الفترة فيقول: إنه استفاد فائدة عظيمة من أستاذه الشيخ علي السراج المعروف بانتمائه لأسرة كريمة اهتمت باللغة العربية ولا تزال. ومن هذه الأسر أسرة الشيخ الطيب السراج، وابنه الشاعر الفذ فراج الطيب، والشاعر حديد الطيب السراج نائب رئيس مكتب الرابطة بالسودان حالياً.

إمام علي الشيخ

ويواصل إمام فيقول: وكان الأستاذ الشيخ علي السراج وهو يدرس في الفصل يضع الشاعر إمام في مقدمة من يحبهم ويؤثرهم بالاهتمام، وكان من شدة حبه له يضعه في مآزق من جهة الإعراب، لكنه يشعر دائماً أنه على قدر المهمة. تخرج الشاعر من هذه المدرسة عام ١٩٤٩م.

أما عن مواصلة تعليمه بعد هذه المرحلة في مجال هندسة الاتصالات المعروفة آنذاك فيقول: إن اللواء حسن بشير – وكان نائباً للرئيس عبود[٧] – رحمهما الله- أعجب بالقصيدة التي ألقيتها أمام الرئيس عبود فأراد أن يدخلني الكلية الحربية السودانية، لكن اللواء محمد طلعت فريد – رحمه الله تعالى – اقترح على الرئيس عبود ابتعاثي لأمريكا لدراسة هندسة الاتصالات في مجال الإذاعة والتلفزيون، فكان له ما أراد، فأعفيت من الخدمة العسكرية، وسافرت مبعوثاً إلى أمريكا، فدرست فيها لعامين ونصف في معهد

الراديو والتكنولوجيا بواشنطن، والتقيت هناك بالخبير الإعلامي على شمّو، والأخ الإعلامي صلاح أحمد.

عصاميته في اللغة والأدب:

استثمر إمام فترة عمله في الجيش في الاطلاع والسماع وارتياد المنتديات الأدبية، ونظم الشعر بعد أن أجاد النحو والبلاغة والعروض كما يظهر في نصوصه المبكرة المزهرة.

فلسفته:

قرأ إمام شعر الشعراء الفلاسفة فأعجب بالمعري وأبي العتاهية، ومن المحدثين العقاد وشوقي والتجاني يوسف بشير وإيليا أبو ماضي، ولكنه لم يقع فيما وقع فيه بعضهم من الشك والحيرة والذهول، وكأنه في الأبيات الآتية من تأملاته يرد على شك إيليا أبي ماضي حين يقول:

من ترى أجمل ممن
نعتوه بالفتى!؟
فهو لا يدري إلى أين
ومن أين أتى!؟
أيها الجاهل أُعْبد
عالماً يدري ويعلم!!

وفي قصيدته تأملات هذه يتناول المعنى، والشرع، والرمز، والذات الإلهية سبحانه وتعالى، والإنسان والمصير، والحواس، والعقل، والفطرة، والنبوة، والغريزة، والزمن، وهي موضوعات تأملات العلماء والفلاسفة، ويدلي بدلوه الذي يقود قارئ شعره الجميل هذا إلى الإيمان. يقول عن النبوة بعد حديثه عن العقل والفطرة والحواس:

«نحن في التفسير أحزاب لذا جاء الرسول
كي يرينا المنطق الفصل فلا نغلو افتراء»

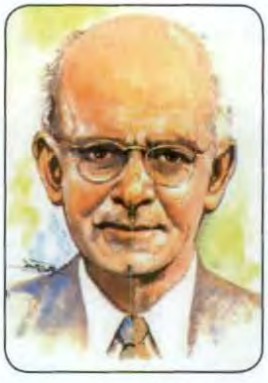

إيليا أبو ماضي

هذه النصوص وغيرها تدل على إيمانه العميق، ويقينه الوثيق الذي شكل معنى حياته وفنه.

قصة موهبته:

أكثر ما شدني – وشد من حوله من رؤسائه – هذه الموهبة المتفجرة التي ظهرت في لحظات إلهام شعري لا يحظى به إلا القليلون، يروي عن هذه الحادثة في الحوار الصحفي الذي دار بينه وبين الشاعر الشاب أبو عاقلة إدريس والصحفي عوض الكريم المجذوب، كان السؤال: أستاذ إمام هل تذكر أول ما كتبت من الشعر؟

فيجيب: من قصائدي المبكرة جداً، وأنا في سلاح الإشارة داهمني الشعر، وكنت حين أكتب لا أشعر بما يحدث من حولي، وذات يوم في أثناء ورديتي – وأنا في عملي – إذا شيطان الشعر، بل أقول: ملاك الشعر – قد هبط علي، وبدأت أكتب قصيدة اسمها «الإله المغرور» تتحدث عن الشاعر والرسام وعن العالم وعن الإنسان، وهاجمت الجميع قائلاً:

يا شاعراً صاغ الجمال قصيدة
عصماء مزهواً بذاك فخورا
وصف الحياة شجيها ومريرها
فتناول المغموم والمسرورا
مهلاً فلا تطأ الثرى متألهاً
وتسير تيهاً أو تشط غرورا
فالله أروع منك في تعبيره
صاغ الجمال بعلمه والنورا

وأورد في الحوار باقي القصيدة التي نالت الموقع الأول في ديوانه أجنحة من نور[٨]، يحكي القصة الطريفة أنه في قمة كتابته إذا به يفاجأ بقائد سلاح الإشارة اللواء عمر الحاج موسى – وكان أديباً معروفاً – يدخل عليه في جولة

تفقدية ولم يشعر إمام بدخوله، فأخذ منه الأوراق، وذهب إلى مكتبه، فعاد الشاعر لأجهزته. وفي الصباح الباكر استدعاه القائد وباغته بالسؤال:

من أين نقلت هذا الشعر؟ فأخبره أنه من إنشائه. فلم يصدق، وقال له: لو أعطيناك ورقة وقلماً لتكتب قصيدة عن الرئيس عبود؛ فهل تفعل؟ قلت: نعم.

فقال لي: الأسبوع القادم (الخرطوم بحري) سوف تحتفل بالرئيس عبود، اكتب لي قصيدة على لسان (الخرطوم بحري) ترحب بالرئيس. فجلس الشاعر وظن قائده أن المسألة ستأخذ وقتاً طويلاً، فإذا به في برهة وجيزة يكتب قصيدة ويقول: القصيدة انتهت! فقال القائد مستغرباً: ماذا يعني انتهت القصيدة!؟ فقلت له: قصيدة الخرطوم بحري تحيي الفريق عبود!.

فنظر إليّ وإلى الذي يجلس معه مندهشاً وقال لي: اقرأ، وبدأت فقلت:

هتفت تحيي شبلها وفتاها
لا يستوي من هدها وبناها
أرض أحال العابثون رياضها
صخراً وجف النور فوق سماها
أنقذتها فحملت مجهد عبئها
وطردت عنها الحائر الأواها
وتبسمت لك في الصدور خوافق
ما كنت إلا رجعها وصداها
خصتك بالحب الذي لا يشترى
والحب معجزة المسيح وطه
هتفت حناجرهم على اسم برة
حتى القلوب تحولت أفواها

فضحك القائد وقال له: هل تعرف الجالس بجانبي؟ فقال: لا أعرفه. فقال له: هذا هو الدكتور عقيل أحمد عقيل – أحد أبرز المثقفين حينذاك – وعلق هذا بكلمة تدل على أبلغ التقدير للشاعر وشعره!.

وجاء يوم الحفل فألقى الشاعر القصيدة أمام الرئيس عبود فأعجب بها، وعلق عليها بكلام يدل على افتخاره بموهبة هذا الشاب الذي جعل العسكريين يفاخرون المدنيين في اللغة والأدب.

تدينه:

الفريق إبراهيم عبود

هذه الموهبة لم تأت من فراغ، وإنما جاءت من تربية وجدانية عميقة، وقد لحظنا أن الشاعر مرّ بتجارب تعليمية مبكرة ولاسيما في خلاوي القرآن الكريم التي تنقل بينها، وهي في منطقة عريقة في تعلم القرآن وما يحمله من لغة جميلة ترفد به الخلاوي طلابها من أدب جم، وخلق حميد، وروحانية لا تجدها إلا في تلك المهاجع والعرصات، حمل شاعرنا كل هذا مع رصيده من الحفظ الذي بزّ به أقرانه، وجاء إلى مدرسة سلاح الإشارة في أم درمان معتزاً بهذا الرصيد، مضيفاً إليه ما يطالعه ويسمعه من الفكر والأدب.

وأحسب أنه كان كثير السماع للمذياع بحكم مهنته في الهندسة الإذاعية، وقد قيّض الله تعالى له أن يندمج في قطاع الطلاب النشط، وقطاع المثقفين والأساتذة الذين يتحلقون حول نادي أم درمان الثقافي ونادي الخرطوم بحري الثقافي، كما يرتادون الديوانيات الأدبية وحلقات التعارف والمطارحات الشعرية في الرحلات الترفيهية.

في هذا الجو المفعم نشأ إمام في مرحلة شبابه المبكر فتغذى وغذى بشعره هذه المحافل، وكان بذلك فخر العسكريين، وكان حسن خلقه وتمسكه بدينه إضافة إلى موهبته حببت رؤساءه فيه حتى نال التكريم والابتعاث.

حرصه على صلاته:

حكى قصة طريفة مع اللواء طلعت فريد – رحمه الله

تعالى – تدل على شجاعته وثباته، كما تدل على عظمة هذا القائد وحكمته واحترامه لدينه، فقال:

كنا في معسكر الجيش ومع أذان المغرب نودي لاجتماع فوري، وترك كل شيء مهما كانت أهميته!. ودخلت في حيرة.. ولكنني قررت أن أصلي المغرب وليحدث ما يحدث! وحضرت الاجتماع متأخراً، ولمحني اللواء طلعت فريد، فانتهرني بالطريقة العسكرية العنيفة: لماذا تأخرت عن الطابور؟ فقلت: معاليك.. المغرب أذن، والمغرب وقته قصير، ولو كان (المنبه) ضرب وقت العشاء كنت أحضر فوراً، ولكن وقت المغرب لا يحتمل، فقررت أن أصلي ثم

أحضر بعد ذلك، فنظر إليّ.. وقال: صحيح.. الله.. أهم من الجيش ومن عبود!.

ومن هنا أحب إمام هذا الرجل، وكان سبباً في تغيير مجرى حياته من رقيب في الجيش إلى مبتعث لدراسة الهندسة في أمريكا. قال مهنئاً لقائده بالترقية:

صحف اليوم أوردت والإذاعة
خبراً تعشق النفوس سماعهُ

وكان إمام عميق الإيمان فمضى في صموده الفكري والسلوكي، لم تلهه بهرجة الحضارة الغربية، ولم يثنه فجورها وإغراؤها، وهو حينذاك شاب دون الثلاثين من عمره، بل واصل ثباته على المبدأ. وفي قصيدته «شوق وحنين» التي خطها في واشنطن ١٩٦١م تتجلى أسمى معاني الثبات في حب الدين والوطن، والمحبوب الذي خلفه وراءه في ملتقى النيلين، لم تفتنه واشنطن بجمالها الصناعي الساحر، ولا الغيد فيها التي تتمشى فرادى ومثنى، لا القصور الشم ولا ناطحات السحاب كما جاء في القصيدة التي نقتطف منها الآتي:

يا شقيق البدر حسناً وسنا
هل ترى الأيام قد تجمعنا
أنت في الشرق جميل مشرق
ساهم الطرف وفي الغرب أنا
إن ذكراك التي في خاطري
تملأ الآفاق سحراً والدنا

ثم ينظر إلى الواقع الذي يعيشه في واشنطن فيقول:

أنت واشنطن يا أعجوبة
باقتدار قد سبقت المدنا
جنة الغرب ويا ذات البها
خصك الله جمالاً وغنى
تتمشى الغيد في جناتها
وروابيها فرادى وثُنى
زهرة تقطف زهراً ناضراً
فتن يجذب فيها فننا

ويرتفع الحس الوطني والديني عنده خلال هذه المناظر الخلابة فيعود به إلى أصالته وصموده وثباته فيقول:

رغم هذا لست أهوى جنة
لم أجد فيها لروحي وُكنا
إنني من أمة قد وهبت
كل إحساس لديها الوطنا
ابن شعب عبقري خالد
في صراع يتحدى الزمنا
أين مني النيل يجري وادعاً
ضاحك الأمواج عند المنحنى[٩]

ثم يقول واصفاً حال قلبه بأنه في ثورة عاطفية مجنونة:

يا لقلب كلما داريته
أقلق الروح وهزّ البدنا
صارخاً في ثورة مجنونة
إن دار الغير سجن وعنا
إن بيت الطين لا تعدله
ناطحات السحب أمناً وهنا
إنني أشتاق وجهاً أسمراً
ليس وجه البيض مهما حُسنا

وإذا أردنا تقصي أسباب هذا الولع بالوطن والثبات على المبدأ فلننظر في عبقرية المكان الذي ولد فيه إمام.. في قرية شبا البركل.. محلية مروي، ولننظر في روعة الزمان الذي عاش فيه إمام، وفي البيئة الذاكرة المصلية المتفتحة التي صاغت وجدانه، إذا نظرنا إلى كل ذلك استبان لنا سر هذا الصمود.

نماذج من شعره:

قال رحمه الله على لسان فدائي يتحدث، ولعله هو المقصود:

صنعت ذلة السجود جبيني
وتعالت عن البكاء جفوني
أنا لم تهدم السجون أمانيّ
ولم يخدش العذاب يقيني
ففؤادي يظل يخفق في الرحب
وإن كان مجثمي في السجون
وحسامي يظل يحلم بالنصر
وإن كنت تحت ظل المنون
كيف أجثو ولا تزال دماء
في عروقي وصارم في يميني
كيف أجثو وكل ذل لفرد
غير ربي.. محرم في ديني!

نشاطه الأدبي:

كان للشاعر إمام نشاط جم لم يقعده عنه المرض حتى آخر حياته، كان فخر المنتديات والليالي الشعرية، والمهرجانات المحلية والدولية.

وكما أشرنا فقد اشترك شاعرنا الإمام في مسابقات شعرية محلية وعالمية منها اشتراكه في فهرسة البابطين للشعراء العرب حيث فاز بقصيدته العذراء كما فاز من بين ثلاثمئة شاعر عربي بالمرتبة الأولى بقصيدته «الإيمان»[١٠].

صدر له من الدواوين: أجنحة من نور ١٩٦٦م، والليل الأبيض ١٩٧٦م، والنجوم الشوارد، ومجموعة شعرية ضمت هذه الدواوين وغيرها ٢٠١٠م.

صدر له من الأعمال الأدبية والفكرية: الفن والجمال من منظور إسلامي ٢٠٠١م، وثورة ٦٩ يوليو التصحيحية.

كتابات صحفية عديدة في: مجلة سلاح الإشارة، ومجلة الملتقى، ومجلة الإذاعة والتلفزيون، وصحيفة ألوان، ومجلة الميثاق.

تقدير الأدباء والمفكرين له:

قال عنه عبد المحمود الكريكي: إمام علي الشيخ من فلذات كبد الأدب الإسلامي، عبر شعره عن مشروع حياته بحرارة وعاطفة صادقة، كان إمام يتساقط رطباً جنياً على من يعرف ومن لا يعرف. كان منارة من الود والكرم والصدق والوفاء للمعشر.

وذكر الشاعر والأديب حديد السراج فضل إمام علي الشيخ فقال: عرفته قبل أن أراه، سمعت بمواقفه دفاعاً عن دينه ووطنه. عرفته صديقاً لشقيقي الراحل فراج الطيب، وعرفته عن قرب عندما انتسب لوزارة الثقافة والإعلام، عرفته من خلال ديوان شعره الليل الأبيض الصادر في ١٩٧٦م، إمام علي الشيخ مثال يحتذى في شموخه واعتزازه بإسلامه وفخره بنسبه لهذا الوطن

العملاق، ووقوفه صامداً في وجه كل طغيان حتى صارت بعض أمانيه حقيقة، وكان سلاحه دوماً كلمة الحق نثراً وشعراً[11].

وقال الشاعر الكبير محمد المهدي المجذوب: في تقديمه لديوانه الليل الأبيض: «والشاعر إمام من الشعراء الشباب الهادئين، فهو بلا أزمة شعرية، وأعني أنه لا يستعين بأسطورة خارجية، أو ينحدر في الأشكال المحدثة في الشعر.. وهو يتجنبها متعمداً.. ويجد كثيراً، ويأخذ نفسه بعمل فني يقوم على موسيقى كاملة، وقافية تامة، ومعنى يشكله الشاعر.»

ويقول الشاعر المجذوب: «وثقافة الشاعر الإسلامية صافية، ويمتاز أسلوبه بالحرارة والبعد عن الضعة، وأشعر أن الشاعر مستقل الشخصية، وحاولت أن أبحث عن أثر كبار الشعراء فيه فوجدت طيفاً من شعراء المهجر وشوقي حين يقول إمام:

رعى الله الكنانة حين مدت
يداً بيضاء نحمدها دواما
وهبّت ثورة الوادي وشبت
كضوء الفجر تلتهم الظلاما

ومن الأمور المهمة التي أحب إثباتها هنا هو أن الشاعر لم تلفحه الثقافة الأجنبية، وهذا يعطيه سمة رائعة بين شعرائنا من الشباب، والذي منحه التفرد في هذا هو قوة الموهبة واختيار الذوق الخلاق»[12].

الشاعر إمام بين التجديد والتقليد:

بالرغم من أن شهادة الشاعر محمد المهدي المجذوب برأت (إمام) من التقليد أو الأزمة الشعرية عند شباب ذاك الجيل؛ فإني للحق أقول: إن إمام واجه في شبابه أزمتين: الأولى: الانسياق وراء تقليد شعراء عصره وإن كان بالرد عليهم. والأخرى: الموقف من الجمال.. جمال الفنون والآداب التي تدور حول الجنس اللطيف – كما يعبرون هذه الأيام.

أما الموقف من التقليد فهو في تشابه الصور والتعابير الشعرية وليس في المحتوى، الأمر الذي نفاه عنه المجذوب. فقد استعار الشاعر إمام صور وتعبيرات من العقاد في قصيدته (الضحية والجلاد): عادت أغاني العرس رجع نواح. وتعبيرات من التجاني يوسف بشير في قصيدته الخلوة. يقول التجاني:

قام من نومه يدغدغ عينيه
مشيحاً بوجهه في الصباح[13]

ويقول إمام في قصيدة الصبي:

قام من نومه وضيء المحيا
قافزاً كالخيال سمحا رضيا

والفرق هنا في الصورة بين تبرم التجاني وتفاؤل إمام.

وقد تقدمت الإشارة إلى تأثره السلبي بإيليا أبي ماضي المخالفة في المعنى والمجاراة في الأسلوب والمعنى.

القضية أو الأزمة الثانية هي الموقف من الجمال، جمال المرأة، وما يدور حوله من أصناف الفنون، فهو من ناحية يهوى الجمال ويرق له. لكنه من ناحية أخرى يرى أن إطلاق العنان مع الجمال فيه انتقاص لمروءة المؤمن. ولا ننس أن هذه الأزمة شكلتها صلته العملية بمجال الإعلام صحافة وإذاعة ومسرحاً وتلفازاً، وقد عمل في كل هذه الأجهزة، لذا أرى أنه خرج من هذه الأزمة من دربين: الأول: الموقف

الشخصي من الجمال. والثاني الموقف الشرعي وهو الرجل المتدين.

◁◁ الأول: إمام والجمال:

لئن عبر الشاعر إمام علي الشيخ عن جلال الله تعالى وعظمته، وثبت على نصرة دينه، فقد برع وأبدع أيضاً في وصف الجمال.. جمال الله تعالى، وجمال الكون، بل وجمال الإنسان. قال في جمال الله تعالى:

من ترى أحكمُ ممَن
وهب الكون اتساقهْ
سير البدر الذي يز
هو بلا غاز وطاقهْ
إن في هذا النظام المحض ما ينبيك عنه

* * *

من ترى أجمل ممن
صور الوجه الجميلْ
وأعاد الزهر عطراً
والصبا نسماً عليلْ
والطيور الصادحات اللحن من أجمل منه

وفي جمال الكون الذي صنعه الله تعالى، يقول مخاطباً الرسامين:

يا من رسمت الكون في آياته
في لوحة أبدعتها تصويرا
ورسمت فيها الماء لوناً زاهياً
وأبنت فيها بالمداد زهورا
مهلاً فلا تطأ الثرى متألهاً
وتسير تيهاً أو تشط غرورا
فالله أبدعُ منك في تصويره
وهب الرياض ملاحناً وعطورا
وهب الكنار غناءه وصداحه
وأحال بالماء الموات نضيرا
فاعبد إلهك إنه صقل الندى
سحباً وأودع في الثقاب سعيرا

وفي جمال الإنسان يقول في قصيدة الناسك:

ويعلم الله كم عانيت من قمر
حلو المقاطع رخو الكف والقدم
يرنو إليّ بأجفان مسهدة
تشكو الهيام ولا أنبيه عن ألمي
يهزني بقوام جل صانعه
مثل القنا وحديث ساحر النغم

◁◁ الموقف الآخر في أزمته الشعرية:

هو ما أشرت إليه بالموقف الشرعي من الجمال، وقد طالت أزمته حتى آخر العقود من عمره، بين أن يصف الجمال كما في قصيدته (القمر السابح) وبين تنسكه كما في قصيدته (عاشق الروح) التي يقول فيها:

سلمى ويا ذات الجمال
الغض والحسن المباحْ
أنا لا أخاف من الجمال
ولا تتيمني الملاحْ

أقول: خرج إمام من هذه الأزمة الشعرية ببحث رصين عنوانه: «تأملات في الفن والجمال من منظور إسلامي»، نشرته الإدارة العامة للثقافة والإعلام بولاية الخرطوم عام ٢٠٠١م.

والحق يقال: إن هذا الكتيب الذي يقع في بضع وستين صفحة بحث جيد تناول فيه الجمال من منظور إسلامي في الكون والإنسان والحيوان.. في الكتاب المنظور، وفي الكتاب المنشور (القرآن الكريم)، ثم الجمال في السنة النبوية، ثم بين خطورة الجمال مستشهداً بقصة سيدنا عمر بن الخطاب مع نصر بن حجاج[١٤]. وتناول الزي والزينة في الإسلام، وخطورة الغزو الثقافي في الغناء والمسرح...إلخ.

وختم بحثه بأن الجمال الذي تعبر عنه الفنون كافة لابد له من قيم ضابطة وهي القيمة الروحية، والقيمة الخلقية، والقيمة الجمالية.

ويتمثل ذلك في: تأكيد إنسانية الإنسان، وتثبيت التصور الإيماني، وتقديم القدوة الحسنة، وتفجير الطاقات والملكات الإبداعية، والترفيه المباح، وإبراز التاريخ الإسلامي والملاحم الوطنية.

ثم يدعو إمام لوضع البنية الأساسية لفنون جمالية إسلامية في شتى المجالات المسرحية والغنائية والمعمارية[١٥]. وهكذا يتجاوز إمام أزمته الشعرية.

في الخاتمة أقول: إذا كانت أول قصيدة نظمها في التاسعة عشرة من عمره تدل على عميق إيمانه وشاعريته، فإن آخر قصيدة حملت ذات القوة والثبات على الإيمان والتفاؤل بنصر الحق وهزيمة الباطل. يقول:

إن النذالة والضلالة كلها
واه، وكل طريقها مسدودُ
دعموا التمرد بالسلاح ليهزموا
إيماننا وليركع التوحيدُ
لكن هذا الدين فوق ضلالهم
يحميه عدل شاهد.. وشهيدُ
مهما تلون مكرهم وفعالهم
فالنصر فوق لوائه معقودُ

رحم الله إمام التقى والصبر والإيمان.. شاعرنا إمام علي الشيخ، وأنا أوصي بدراسة أوسع له ولشعره، فهو يمثل روح الأدب الإسلامي الحقيقية، كما أوصي بإعادة طبع مجموعته الشعرية حيث إن الطبعة التي وقعت في يدي بها مجموعة كبيرة من الأخطاء، ولا تليق بهذا الشاعر الفذ وشعره الرصين. والله المستعان ■

الهوامش:

(١) ملف أسبوع الأدب الإسلامي الثالث ٢٠٠٧م (الذي أقيم بالتعاون مع جامعة أم درمان الإسلامية). الخرطوم، محرم ١٤٢٨هـ.

(٢) مجلة الميثاق، الخرطوم، أغسطس ٢٠٠٨م، صحيفة الشاهد، الأحد ١٩ صفر ١٤٢٢هـ، ٢٢ يناير ٢٠١١م، صحيفة ألوان، يناير، ٢٠١١م.

(٣) شِبا (بكسر الشين، وباء وألف) قرية قديمة قدم حضارة مروي وجبل البركل من قبل الميلاد بقرون.

(٤) محمد أحمد بن عبد الله، ادعى المهدية بالسودان، وقاوم الحكم الأجنبي، وأقام دولته وعاصمتها أم درمان عام ١٨٨٥م. وأما الطريقة الختمية فهي نظام صوفي أنشأه السيد محمد عثمان الميرغني تلميذ السيد أحمد بن إدريس المغربي.

(٥) الخلوة مركز تحفيظ القرآن للتلاميذ وهي من الاختلاء عن الناس للذكر والحفظ. انظر كتاب البروفسور أحمد علي الإمام، الخلوة والعود، الخرطوم ٢٠١٠م.

(٦) المدرسة الأولية آنذاك تعادل الابتدائية أو مدرسة الأساس.

(٧) حكم الرئيس إبراهيم عبود السودان من نوفمبر ١٩٥٨م إلى أكتوبر ١٩٦٤م في انقلاب عسكري أطلق عليه ثورة نوفمبر وأطيح به في ثورة شعبية هي ثورة أكتوبر ١٩٦٤م.

(٨) أجنحة من نور أول دواوين الشاعر طبع عام ١٩٦٧م الخرطوم، ثم يليه الليل الأبيض.

(٩) منحنى النيل يشمل المنطقة التي فيها خزان مروي ومنطقة شِبا وجبل البركل حيث ولد الشاعر.

(١٠) قصة إيمان قصيدة رائعة فازت في مسابقة المركز الإسلامي الأفريقي (جامعة أفريقيا العالمية بالسودان). ديسمبر، عام ١٩٨٧م.

(١١) انقلاب الشيوعيين في السودان جاء بعد خلافهم مع الرئيس نميري – رحمه الله – يوليو عام ١٩٧٠م، وقد حركنا مع الأخ إمام – رحمه الله – أولى المظاهرات ضد انقلاب الشيوعيين في أم درمان والخرطوم حتى ذهبت حركتهم أدراج الرياح في يومين فقط.

(١٢) مقدمة مجموعة إمام الشعرية، ٢٠١١م الخرطوم.

(١٣) التجاني يوسف بشير، ديوان إشراقة (عدة طبعات بالخرطوم).

(١٤) تأملات في الفن والجمال من منظور إسلامي، ص٢٠.

(١٥) المصدر السابق، ص٦٥-٩٦.